الفصل الثانى

أمين الريحانى فى عصره [1]

١ ـ حياته

إن العصر الذى عاش فيه أمين الريحانى كان بدء تفتّح على العلم ، فقد ذرَّ قرنه فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولمَّا يزل متّصل الحلقات آخذاً بالانفتاح والانطلاق إلى يومنا هذا .

ولا يذكر اسم أمين فارس الريحانى حتى تتراءى أمام الأعين مؤلفات رجل مفكر نبتت أفكاره فى لبنان ونمت فى « الولايات المتّحدة » .

وُلِدَ فى قرية « الفريكة » من قضاء المتن فى لبنان ، السنة الـ ١٨٧٦ وتعلّم مبادئ اللغة العربية والفرنسية فى مدرسة مواطنه الصّحفى المعروف « نعوم مكرزل » وفى الثانية عشرة من سنّه رحل إلى «نيويورك» صحبة عمه «عبده» ، فدرس مبادئ اللغة الإنكليزيّة . ثم اشتغل بالتجارة مدّة يسيرة ، وفى هذه الأثناء كان يطالع تآليف كبار شعراء إنكلترا ، فشغف بكتب شكسبير وروايات ، وعلى أثر هذه المطالعات تولّد فيه ميل إلى فنّ التمثيل ، فانخرط فى سلك شركة تمثيلية أميركية ، وجال معها ثلاثة أشهر ، ثمّ ترك هذا الفنّ لأسباب مجهولة لم يتحدّث عنها ولم يذكرها أحد. ودخل كليّة « نيويورك » الفقهيّة ، فمكث فيها سنة ولم يبرحها إلاّ لأسباب صحيّة ، وانقطع إلى الدرس على نفسه والكتابة والخطابة ، ورجع إلى مسقط رأسه « الفريكة » السنة ١٨٩٨ ، وفى سكينة القرية وهدوئها انصرف إلى مطالعة « لزوم ما لا يلزم » للمفكر العربى الكبير أبى العلاء المعرّى ، فأعجب به ومال إلى ترجمته للغة الإنكليزيّة ، وطبعتها له شركة أميركيّة اسمها Double day and Co. New-york وبه كان بدء شهرته ، وعاد إلى الولايات المتّحدة

---

(١) بالاعتماد على الهلال ج ٦ السنة الـ ٣٠ ص ٥٦٢ . و « أمين الريحانى » جمعه وبوبه أخوه الأديب ألبرت ، وعجالة وضعها حارث الراوى عن الريحانى .

وبقي فيها إلى السنة ١٩٠٤ ، وقفل راجعًا إلى وطنه لبنان ، يكتب وينشر في المجلاّت والجرائد العربية والإنكليزيّة ، ويخطب في الأندية الأدبية والمدارس .

أمّا وقد عرفنا مولده ومنشأه وما حصّله من الدرس ، فعلينا أن نتعرّف إلى صورته الجسمانية .

٢ ــ صورته الجسمانية

أمين الريحاني كما عرفته ، وكما وصفه أخوه الأديب « ألبرت » قال : « رأس كبير وشعر أسود علاه غبار الزمان فابيضّ بعضه وبقي البعض الآخر على سواده ، تنبسط تحته جبهة كتبت الأيّام فيه ما ازدحم من الأفكار ، وحاجبان مقوّسان تحتهما عينان واسعتان حادّتان يشعّ منهما نور الحبّ والإخلاص لوطنه لبنان وللبلاد العربية قاطبة ، وأنف طويل معكوف في وجه أسمر البشرة ، ما هو بالمستدير ولا بالطويل ، فيه شنبان قصيران وفم دائم الابتسامة ، من تحته ذقن مستدير ، يحمل هذا الرأس جسم ربع القامة ، لا بالهزيل ولا الممتلىء ، ويده اليسرى فيها شيء من الاسترخاء من أثر عارض عصبيّ تزلّه بين الفينة والفينة » .

حديثه عذب لذيذ ، يتهادى مع الهواء بهدوء واطمئنان ، بجرس حلو تستسيغه الأذنان ، وتفترّ له المباسم ، حاضر النكتة ، ظريف المعشر ، واسع الاطلاع ، له في كلّ فنّ من فنون الأدب والعلم باع لا بالطويل ولا بالقصير ، ولكنّه كافٍ وافٍ ، و « خير الأمور الوسط » .

٣ ــ تأثيره

إنّ ما كتب ونشر سواء في العربية أو الإنكليزية ، كان له الأثر الطيب في قلوب قرّائه ، كيف لا يكون هذا ، وهدفه الإصلاح وزرع بزور الوطنية في القلوب . وقد عرفنا شيئًا مما كتب وعرضنا إليه ، فقد كان يبغض الكذب والتمويه

والتدجيل فى الأدب والسياسة والاجتماع والدين ، ولست أعدو الحقيقة إن أنا قلت : إنه كان رسول الشرق إلى الغرب ورسول الغرب إلى الشرق ، يحمل فى صدره القوّة المعنويّة من حريّة وصراحة غير مراوغ ، ولا خدّاع ، يقول ما يعرف ، ويعتقد أنه حقّ وعدل ، لا يرهبه سيف ولا يخيفه سجن ، ولا يقضّ مضجعه نفى أو تشريد .

اجتمع بالملوك والأمراء والوزراء والحكّام . فقال ما يعتقد ونصح بما رآه صواباً . وكانت أقصى أمانيه أن يجتمع زعماء العرب وملوكهم وشيوخهم وأمراؤهم على الحبّ والتصافى ، نابذين الأحقاد والضغائن والكبرياء عاملين يداً واحدة على رفع لواء العرب وإحياء التراث الأدبىّ القديم بإيمان وعقيدة وإخلاص ، آخذين بأسباب الحضارة وترقية الأمة . وإليك ما جاء فى كتابه « ملوك العرب » قال: « إن العوامل الطبيعيّة توجد فى شكل أقسام من الأرض وتقطيعها ، وفى من يسكنها ما يسمّى وحدة جغرافية تتشابه فيها الأجناس والطباع والعادات والتقاليد، وتشترك فيها مصالح الأهالى وسياسات المتقدمين فيهم . غير أنّ هذه الوحدة لا تدوم إلاّ بثلاث : حكومة منظمة عادلة ، ومدارس وطنية عامة ، وطرق مواصلات حديثة أى البرق والبخار » . إلى أن يقول أخيراً : « لا أمل للعرب فى تحقيق الوحدة العربية الكلية اليوم[1] . فهل من الممكن أن يتفاهم ملوكها ويتآلفوا ؟ أجيب نعم . وأقول فوق ذلك إنه من الممكن أن يؤلّفوا وحدتين أوليتين تقسمان شبه الجزيرة شطرين فى الحكم كما قسمتها الطبيعة ، أى الشطر الغربى والشطر الشرقى »[2] .

وسنرى فى المنتخبات ما يوضح لنا ذلك جليّاً .

---

(١) أى سنة ١٩٢٢ .

(٢) « ملوك العرب » ج ٢ الطبعة الثالثة بيروت ص ٤٥٥ — ٤٥٦ .

٤ ـ أخلاقه

إنّ من يطّلع على مؤلفات « الأمين » ويسبر غور أقواله يرى أنه طبع ونشأ على حبّ الصدق واللطف والإيناس ، ولا ريب أن مردّ ذلك للتربية البيتية والبيئة التى نشأ فيها .

لقد كان يحبّ الناس ، ويحفظ الصديق ، ويبالغ فى إكرام الضيوف ، وسائله مجاب ، غير طمّاع ولا سكّير ولا محبّ للمال . وأعزّ شىء عنده كان الكتاب والقلم ، وأحسن أيامه ، أيام عزلته وانقطاعه إلى التفكير والتأمّل ، يستوحى الطبيعة فى وادى « الفريكة » المشرف على نهر الكلب يعالج أمراض الشرق الذى رسف بقيود الظلم والاستبداد حينًا من الدهر ، لا يعرف غير الجهل والعصبية الذميمة والسبات الدائم على فراش الغفلة والانقياد إلى القوىّ الظالم . وأبناؤه تكفيهم كسرة خبز وشربة ماء وقميص بالية ، وقناعة وزهد ، فى هذه الحياة إلى أن تطوى الورقة وينضمون إلى أمّهم الأرض ، هذه كانت حياة الشرقيين ، وقد آلمت الريحانى فجرّد قلمه ، وكان أشدّ من المدفع يحارب الجهل والجبن والتعصّب وينشر بزور المحبة والمعرفة ، ويفتّح العيون على الحياة المثلى . وكلّ ما كان يرمى إليه تحرير الشرق جملة ونشر العلم والثقافة فى ربوعه وقوله : « مزايا الشرق أن ينبت أشخاصًا منحوا شيئًا من الألوهيّة ، ومنوا بالخمول والكسل »[1] وهذا ما يثبت لنا حبّه وإخلاصه فى إنهاض همم الشرقيين جملةً .

---

(١) « بزور الزارعين » جمعها ألبرت ريحانى ص ٧٨ .

٥ ـ أقوال عامة [١]

كان كلّما ظهر أثر لأمين الريحانى ، تنادت به الجرائد والمجلاّت العربية والإنكليزية .

من تلك الصحف مجلّة « آسيا » قالت ما تعريبه : « إن كثيرين من الأوربيين ـ سياسيين وجنوداً وعلماء ـ زاروا بلاد العرب . فهناك مثلاً « بركهارت » و « بورتون » و « دوتى » الذين طافوا أنحاء بلاد العرب الوسطى والغربيّة و « فلبي » الذى اجتاز الصحراء من خليج العجم إلى البحر الأحمر ، ولكن قلّ بين الرحّالة والسائحين من كانت له الفرص المساعدة على التعرّف الصحيح حقّ المعرفة فى بلاد العرب وملوكها كأمين الريحانى .

إنّ العربية لغته وهو يتقنها كما يتقن الإنكليزية ويكتب ببلاغة فى اللغتين ، وقد تنقّل فى جميع أنحاء الجزيرة ؛ وغايته إيجاد حلف عربىّ ، يجمع ملك الحجاز وإمام اليمن والسيّد الإدريسى ، وسلطان نجد فى هذا الاتفاق ، فيوجد إمبراطورية عربية تعمل فى سبيل السلام والتمدّن .

وكتب نادى « الثريا » فى الولايات المتحدة وهو نادٍ يضمّ كبار أدباء أميركا فى الولايات المتحدة : « إن أمين الريحانى هو أفصح خطيب دخل دائرتنا » .

ودبّج « فاركاس لاڤيلا » الكاتب الشهير الذى يعدّ عند الإسبان بمنزلة « مكسيم غوركى الروسى » فصولا تحت عنوان « أطواق الذهب » تحدّث فيها عن طائفة من جبابرة الفكر فى هذا العصر فقال عن الريحانى ما يلى :

« بماذا ترانى أحدثك عن أمين الريحانى الشاعر الحقيقى الساحر ، يخلبنى بعمق فكرته ورحابة آفاق تأملاته ، وخياله . فقد تجنّح فكره واختمر خياله الخصب النامى حتى أصبحا شعراً وحتى تحوّلا إلى خمرة معتّقة إذا سكبت فى الأقداح لاتعافها الأفواه .

---

(١) بالاعتماد على مجلة « اقرأ » فى دراسة مارون عبود للريحانى ، دار المعارف مصر ص ١٧ .

لقد نشأ هذا الشاعر فى بوادى الشرق تحت أشعة الشمس المحرقة ، وفى ظلّ ظلال الجوامع العالية فى وسط هذه التأثيرات الصامتة ملأ جرّة أحلامه وتصوراته وخيالاته ، وعندما نما فكره ، وارتفعت شجيرة أحلامه ، أفرغها شعراً عميقاً وطروباً فى أفواه الآلهة » .

وقال الأستاذ « كراتشكوفسكى المستشرق الروسى » فى كتاب أرسله إلى صديق له :

« إنك تسمع غالباً فى كتابات الريحانى المبتكرة أصواتاً حربية جريئة بعيدة الصدى ، فهو ينشد الثورة ويدعو الناس إلى التآخى ، ومع ذلك فالقوّة فى نبوغه ليست فى هذه الناحية من أدبه » .

وجاء فى كتاب المغرب الأقصى [1] .

قال المقيم العام الإسبانى فى حفلة معهد الدروس المغربيّة بتطوان : « نحتفل اليوم فى هذه المؤسسة باستقبال مفخرة من مفاخر الثقافة العربيّة ، الأستاذ أمين الريحانى الذى شرّفنا بقبول تسميته مديراً شرفياً لمعهد الدروس المغربيّة . قد كان من أعزّ رغائبنا أن يتعرّف إلى هذه المنطقة السعيدة ويرى بعينى رأسه عمل فرنكو .

إننا ننتظر حكمه ونقده كسلطة لا جدال حولها فى العالم العربى . . . إنّنا نترك الأمر لحكم التاريخ والآن لشهادة أمين الريحانى » .

هذه أقوال جادت بها قرائح كبار الأدباء والمستشرقين تبيّن لنا المنزلة الرفيعة التى كان يتمتّع بها مفكرنا الكبير أمين الريحانى .

---

(١) « المغرب الأقصى » رحلة فى منطقة الحماية الإسبانية . دار المعارف بمصر ص ٦٦٤ .

٦ــ منزلته

لم يكن احترامه ومنزلته الرفيعة مقتصرين على بنى قومه؛ بل كانا متجاوبين فى الأقطار العربيّة والأميركية، وقد قرأنا أقوال الأدباء فيه ، وما كان يتمتّع به من شهرة واسعة ، يحتفى به أينما حلّ وحيثما توجّه .

وهذا ما دعا الحكومة اللبنانية إلى وضع رسمه فى دار الكتب الكبرى تخليداً لذكره واعترافاً بأدبه .

ولقد أخبرنى ابن الثقة أن بعض الأقطار العربيّة الشقيقة ، قد أطلقت اسمه على بعض شوارعها ، وقال : إنّ مدرسة شيّدت فى حماه وأطلق عليها اسمه ، كما دعى جناح باسمه فى مدرسة محرّدة ــ سوريا ــ وبنى شقيقه يوسف مدرسة فى بلدته « الفريكة » باسم أمين الريحانى .

٧ ــ الأوسمة

١ ــ مُنِحَ وسام المعارف الأوّل الإيرانى .

٢ ــ وسام المعارف الأوّل للمغرب الإسبانى .

٣ ــ الاستحقاق اللبنانى الأوّل المذهب[١].

ولم تقتصر خدمته على لبنان حسب بل تناولت خدماته الأدبيّة الأقطار العربية كلها ، فلا عجب أن كانت له منزلة رفيعة مرموقة بين قومه وأقرانه وأحبّائه ولا سيما العرب ومن يمتُّ إلى العرب بصلة .

(١) عن سجل المتحف الذى أنشأه أخوه لأديب المعروف ألبرت ريحانى فى بلدة الفريكة .